نهاية المصيف

تعودنا تربيع الفصول السنوية فى عصرنا الحديث . فهى عندنا الآن أربعة فصول فى العام : هى الربيع والصيف والخريف والشتاء .

أما فى مصر القديمة فقد كانوا يعرفونها ثلاثة فصول ، على حسب مواسم الفيضان والزرع والحصاد ، وكان هذا التقسيم - بالنسبة إلى المصريين - أصح وأضبط فى حسابهم من الوجهة الجغرافية ومن الوجهة الجوية ، لأنه يوافق أعمال الزراعة ، ويوافق إحساسهم بالانتقال بين مواسم الاعتدال والبرد والحرارة .

ولا مزية لتقسيم السنة عندنا إلى أربعة فصول ، إلا أنه تقسيم صحيح من الوجهة الفلكية ، وأنه يوحد الكرة الأرضية كلها فى نظام واحد .. فلعله بشير بالعالم المتحد فى المصلحة والشعور .

لكننا فى الواقع لا نحس بانتهاء الربيع فى الثانى والعشرين من شهر يونيو ولا بانتهاء الصيف فى الثانى والعشرين من شهر سبتمبر . بل ينتهى الصيف عند الفلكيين ، ولا نزال بعده نتنفس

من الهواء أنفاسه الصيفية ونلمس أخطاء الفلكيين النفسية أو الجسدية ، فى كل قطرة من قطرات العرق التى ترفض من الأجسام .

وأيا كان الفارق بين إحساسنا وحساب الفلك ، فقد اتفقنا عل أن الصيف قد انتهى منذ أيام ، وأن موسم الاصطياف قد آذن بإغلاق أبوابه ، ولو استفتحها الكثير من عشاق الاصطياف على حسابهم الخاص لا على حساب العرف ولا على حساب الفلكيين .

وقد أخذنا نسمع الناقدين يشيعون الموسم بما تعودوه من الملاحظة أو ضروب التنديد .

وفى المصيف متسع لكثير من الملاحظات ، وكثير من المؤاخذات ، لأنه يأخذ من طبيعة البحار فى كل شىء حتى فى العيوب ، ولا شك أن الناقدين على حق حين يعيبون الشطط فى أحوال المصيف ، سواء من ناحية الأخلاق أو من ناحية الصحة أو من ناحية الاقتصاد ، أو من ناحية الذوق والآداب . ولكنهم ليسوا على حق فى كل شىء ، وليسوا بمنجاة من الخطأ فى كل ما يقولون ، ولعل الموسم فى حاجة إلى كلمة إنصاف بينه وبين ناقديه . وإذا عرضنا أقوال المنتقدين نفسها على محك الانتقاد فلعلنا نهتدى إلى كلمة الإنصاف المطلوب .

ونحن نصحح القول فى أحوال المصطافين إذا صححنا القول

فى أغراضهم من الاصطياف .

فلماذا يذهبون إلى المصائف بالمئات وبالألوف ؟ أللصحة ؟ أللراحة ؟ أللرياضة ؟ ألتطبيق قوانين العرف والأخلاق ؟ .

لا نظن أن الاصطياف يقوم على غرض من هذه الأغراض . ويخيل إلينا أن المصائف تقفر من تسعة أعشار روادها لو قصرناهم على طلاب الصحة ، أو الراحة ، أو الرياضة ، أو رعاة العرف والأخلاق .

فالناس - إلا القليل منهم - لا يفكرون فى الصحة إلا حين يضطرون إلى التفكير فيها ، ولا يلتمسون العلاج من متاعبهم الجسدية إلا إذا أكرهتهم على معالجتها . وليست المصائف أفضل الأماكن للشفاء والاستشفاء ، ولا الوسائل الطبية فيها أوفر الوسائل وأدعاها إلى الإقناع والاستدعاء ، وقلما رأينا إنسانًا زاد وزنه فى الصيف ، ولوطلب المزيد .

والناس لا يستريحون فى المصائف وإن خلوا من الأعمال والتكاليف . فمنهم من ينام فى الأيام الأخرى إلى الضحى ويستيقظ فى المصيف قبل طلوع النهار ، ومنهم من يأوى إلى فراشه فى الساعة العاشرة أيام العمل ، ولكنه يسهر إلى الفجر فى المصيف .

أما الرياضة فلا يجرى على قواعدها أحد من رواد الشاطئ ولو كان من الرياضيين . ولعل الأصح هنا أن نقول إنهم يمارسون

الحركة ولا يمارسون الرياضة ، لأن أجهل الناس بالرياضة هناك هم الذين يقودون الآخرين فى حركاتهم ووثباتهم ، وهم القدوة التى يقتدى بها العارفون بالرياضة وغير العارفين .

ولا نطيل القول عن رعاية العرف والأخلاق . فإنك إذا راقبت الجمهور الغالب من المصطافين بدا لك أن القاعدة هناك هى إلقاء ما يمكن إلقاؤه من قواعد العرف ، ومخالفة ما تمكن مخالفته من قواعد الأخلاق .

فلماذا إذن تقصد المصائف إن لم تقصد للصحة ولا للراحة ولا للرياضة ، ولا لالتزام العرف والآداب العامة ؟

إنها تقصد للطلاقة من القيود .

إنها تقصد لأن حياة الأعمال قيود ، وحياة « الإجازات » إعفاء من القيود .

وفى ذلك شىء من المنطق لا ريب فيه ، فإن الطلاقة هى المعنى الوحيد الذى يقابل معنى التكاليف والقيود ، ومن حقها أن تطلب وأن يحسب لها حساب ، ومن حقها أن تصبغ المصائف بصبغتها لأنها هى الصبغة الملازمة لها قبل كل صبغة ، فلا معابة فيها إلا حين تخرج من حدود الذوق أو تخرج من حدود الاعتدال ، لأن الإسراف معيب فى كل شىء وقد يعاب فى الفضائل المتفق عليها . لأن الإسراف فى العدل قسوة ، والإسراف فى الرحمة مرض ، والإسراف فى الكرم سفه ،

والإسراف فى العقل جمود ، والإسراف فى الطلاقة خبال أو فوضى .

فالناقد الذى يعيب الآداب على الشواطئ يجب أن يسلم للطلاقة بحقها قبل أن يعيب ، ويجب أن ينتظر على الشاطئ شيئا غير الذى ينتظره فى موسم الأعمال والتكاليف ، وإلا فاللوم عليه هو فى سوء الانتظار ، وفى التسوية بين موسمين لن يتساويا فى طبيعة الأشياء ، وهما موسم التكاليف وموسم الإعفاء من التكاليف .

لكن الطلاقة - بعد هذا - نوعان أو صنفان : طلاقة العبيد ، وطلاقة الأحرار .

فالعبد يخرج من قيود العرف كما يخرج السجين من أسواره وحراسه : يخرج منها لأنها قيود سيده الذى وضعها لمصلحته لا لمصالح عبيده . يخرج منها خروج العدو من أسر عدوه ، والأجير المسخر من شقاء التسخير والإذلال .

أما الحر فلن يخرج من قيود العرف هذا الخروج . لأن قيود العرف من وضعه هو وليست من وضع سيد مسيطر عليه ، يسخره لمنفعته ولا يبالى بعد هذه المنفعة بمشيئة لعبده ولا كرامة .

طلاقة العبيد من العرف والحياء طلاقة المحروم الممسوخ الذى ليس له عرف ولا حياء . بل يعلم أن العرف المفروض عليه من صنع غيره ، وأن الحياء المفروض عليه مطلوب لمصلحة غيره .

أما طلاقة الحر فهى انتقال من مشيئة إلى مشيئة ومن حالة لها مناسبة إلى حالة لها مناسبة مثلها . وكل ما فى الأمر أن الاختلاف بينها اختلاف فى المواقيت والمواعيد ، وليس اختلافا فى الطبيعة وسليقة النفس ودخيلة الضمير .

فالعبد ينطلق من سيد .

والحر ينطلق من نفسه لنفسه ، فلا ينسى حقوق نفسه فى هذا الانطلاق ، لأن هذه الحقوق هى مصدر العرف والواجب والحياء .

ليس من العقل أن يتحكم العقل فى كل كبيرة وصغيرة من شئوننا ، وكل لحظة أو برهة من أوقاتنا ، فإن العقل الذى ينسى دوافع الحياة كل النسيان عقل فيه نسيان كثير ، وفيه خطأ كثير ، وفيه عجز كثير عن تدبير دوافع الحياة .

والعقل كالعين . فنحن نطبق العين فى الرقاد ، ونغمض العين إذا كلت أعصاب النظر ، وتتقى الغبار بعض الأحيان بالإغضاء .

وكذلك العقل لابد له من غمضات كغمضات العيون ، ولابد للعاقل من حرية يحفظها لنفسه فى مواجهة عقله ، فضلاً عن سائر العقول .. وإلا فهو فى عقله مصاب .

ولكن الفرق عظيم بين فقد النظر من مرض فيه ، وفقد النظر إلى حين من إغضاء مقصود .

والفرق عظيم بين العقل الذى لا يردع صاحبه من عجز فيه ، وبين العقل الذى يرسل العنان لنفسه تارة ويقبضه تارة أخرى ، لأن العنان على كلتا الحالتين فى يديه .

فإذا كانت الطلاقة على المصائف طلاقة عبيد فهى ذميمة منافرة للذوق والأدب ، وهى بغيضة ككل صفة تتمخض عنها طبائع الاستعباد .

وإذا كانت الطلاقة على المصائف طلاقة أحرار ، فهى مطلوبة فى أوقاتها ، كما تطلب التكاليف فى أوقات التكاليف .

بل نقول أكثر من ذلك إنها حق من أوجب الحقوق ، لأن الحقوق تأخذ كما تعطى ، وتطلق كما تقيد ، وتصاحب ساعات الفراغ كما تصاحب ساعات الشغل والجهاد .

ولكننا نستحقها بشفاعة واحدة لا شفاعة غيرها ، وهى قضاء حقوق العمل ، والنهوض بأعباء التكاليف .

وها نحن نودع موسم المصيف .

وها نحن نستقبل موسم الأعمال والتكليف .

فلا نغلو فى لوم المصطاف إذا استوفى نصيبه من طلاقة الأحرار ، ولكننا نرجو أن يستحق الموسم القادم بعمل يشكره له ضميره ، ويشكره له وطنه ، ويليق بالحر الطليق .